٢ ـ الزندقة

في عهد المهدي العباسي

« أيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله »

(من وصية إبراهيم الامام العباسي لأبي مسلم الخراساني)

للاستاذ محمد خليفه التونسي

عرضنا في المقال الماضي (الرسالة : العدد ٦٣٧) عرضا موجزا يسيرا ما كان من موقف الأمويين إزاء مخالفيهم في الرأي والسياسة ، وعارضناه بموقف مؤسسي الدولة العباسية إزاء مخالفيهم في الرأي والسياسة ، وبينا وجوه الخلاف بين الموقفين ، كما أوضحنا موقف هؤلاء وأولئك من العرب والفرس وما كان من اطمئنان الأمويين إلى العرب وحذر الآخرين من العرب والفرس معا وضرب كلا العنصرين بالآخر لسوء ظنهم بهما معا ، وأوضحنا أن النعرة الفارسية ظهرت منذ فتح العرب فارس في عهد عمر الذي لم يكن قتله إلا مؤامرة فارسية لكيد العرب ، وما كان من خوف تسلط الفرس على مؤسسي الدولة العباسية فدفعهم إلى الإفراط في الاتهام والقتل لمجرد الشبهة ، وما كان من طموح الفرس إلى الاستقلال وتطلع أبي مسلم إلى السلطان حتى قتله المنصور ، وسوء ظن العباسيين حتى بوزرائهم وقتل كثير منهم مما أدى بخالد بن برمك إلى كراهة أن يسمى وزيرا تطيرا من القتل كما قتل قبله أبو سلمة الخلال ، وما كان من إسراف العباسيين في الحجر على الحرية الفكرية خوفا على دولتهم من الانهيار ، وأن المنصور كان يحجر على حرية الرأي في كل ما يمس الحكومة ونظمها ليس غير حتى ليحاسب الناس على ما في ضمائرهم ويعاجل بالقتل كل خارج عليه ، بل كل من كان وجوده خطرا عليه ولو لم يكن يستحق القتل وما كان من عدم مراعاته في ذلك حدود الدين ولا قواعد العرف العربي ولا العهود التي قطعها على نفسه . وقلنا في ختام المقال: « فلما جاء ابنه المهدي سنة ١٥٨ هـ كانت الخلافة قد استتبت له فلم يكن يخشى ما خشي والده من الفتن على الدولة ولكن عهده لم يكن خاليا من فتن ذات طابع خاص يميزها من الفتن التي قامت في عهد أبيه ، وقد جعلته هذه الفتن يتجه إلى الحجر على الحرية الفكرية في عهده ولاسيما الزندقة ؛ إذ كانت الزندقة طابع هذه الفتن وعنوانها ، وهذا ما جعله دقيق الإحساس من ناحيتها ، كلفا بمعاقبة من يتهمون بها إن صدقا وإن كذبا ، جادا في البحث عن أتباعها في كل مكان ، فإذا وجدهم حاسبهم حتى على ما في ضمائرهم وعاقبهم بالظنة كأبيه ، ولو لم يجد من أعمالهم ولا أقوالهم مستندا للتهمة فضلا عن مبرر للتعذيب والقتل ، أما فيما عدا الزندقة فكان المهدي حياله سمحا كريما ، ولذلك تفصيل سيأتي بيانه إن شاء الله » .

ولتفصيل ذلك لا بد من بيان الحوادث التي حملت المهدي على تشدده في عقاب الزنادقة ، وبيان صفاته النفسية والفكرية التي جعلته يتخذ أسلوبا خاصا في النظر إلى هذه الزندقة وهؤلاء الزنادقة . ولابد من عرض بعض المحاكمات التي جرت بينه وبين كبار الزنادقة والتهم التي وجهت إليهم أثناءها حتى قضى فيها بالقتل أو بغيره . ولابد لنا مع هذا كله من أن ننظر نظرة ربط إلى أمرين مترابطين بوجودهما هما الزندقة والشعوبية أو الوطنية الفارسية إذ لا حيلة لنا في فهم

وها هو ذا اليوم النثر العربي قد تهذبت حواشيه واتضحت آياته وتم تجديده على أيدي الجيلين الأخيرين من الكتاب ، وبفضل ما بذله هؤلاء من جهود متواصلة ، وما صبروا عليه من جد وعمل ، فأصبح هذا النثر أهلا لأن يكون أداة تعبير لحضارة عصرية . وبلغ هذا المستوى من الرقي الذي به يتم تأليف الآثار الفنية الخالدة . وإنما نعني بالآثار الفنية الخالدة آثاراً لها من قوة السبك ومن الامتلاء بالحقائق البشرية ما لا تنال منه الترجمة إلى اللغات الأجنبية أو تذهب به ؛ « فدون كيشوت » لمؤلفه « سرفانتاس » وكتاب « الحرب والسلم » لـ « تولستوي » ، وكتاب « كيم » لـ « روديارد كبلنغ » كلها كتب قد حافظت في نصوصها الفرنسية على أوفر قسط من جمالها وروعتها

وإني أؤمل بكل قوة أن يأتي اليوم الذي يوجد فيه تصنيف لمؤلف عربي من المعاصرين ينقل إلى اللغات الأوربية فيقيم لأبناء العرب الدليل على أن أبناء عدنان وقحطان قادرون مرة أخرى على تنمية كنز الفكر البشري

[عن نشرة الدراسات العربية بالجزائر ترجمة الثريا] وليم مارسيه

الزندقة فهما صحيحا ما لم ننظر إليها مرتبطة بهذه الشعوبية الفارسية التي كانت السبب الأهم فيما قام في فارس من ثورات على الخلفاء من العرب أو حروب استقلالية ، فلم تكن تلك الفورات المتتابعة إلا لطلب استقلال الفرس الذي انتزعه العرب منهم ، ومحاولة التخلص من السيطرة العربية ولا سيما بعد أن زاد الاضطهاد ورأى الفرس بأعينهم أنهم قادرون على هزيمة العرب بما جرى بين الفريقين من وقائع انتصر فيها الفرس على العرب ومنها المعارك التي كانت بين الجيوش الخراسانية وجيوش الأمويين وانتصار الأولين وهم فرس على الآخرين وهم عرب، ولقد كان ما كان من ضياع أمل الفرس في العباسيين بعد أن مكنوا لهم دولتهم ، وجحودهم الذي ظهر في قتل المنصور أبا مسلم ، وإخماده ثورة تلميذه سنباذ الذي ثار للمطالبة بثأره حين ثار عليه في سنة ١٣٧ هـ وهي سنة مقتله[1] ، وما كان من قمع المنصور الراوندية حين خرجوا عليه لقتله في الهاشمية سنة ١٤١ هـ وقد كانوا على رأي أبي مسلم في زعمه تناسخ الأرواح ، وادعوا أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية أحد ولاته هو جبريل[2] ، ولا بد لنا من النظر بعد ذلك في عقائد فارس المانوية والمزدكية لفهم الآراء التي كانت تتوج هذه الفتن ولا سيما فتنتي الزنادقة المحمرة والمبيضة في عهد المهدي ، وتحديد معنى الزندقة كما تراها المهدي والمعاني الأخر التي كانت ذائعة في ذلك العصر لكلمة الزندقة وكانت تطلق على كثير ومع ذلك ظلوا بعيدين عن العقاب بل ظلوا في كنف الدولة ينالون خيراتها ويحتمون بها بل يلون ولاياتها من الخلفاء ويقودون جيوشها مع الثقة والتقدير، ولا بد من الإشارة إلى دسائس البلاط ومكايد السياسة والتنافس بين رجال البلاط وما كان لكل ذلك من الخطر في إشاعة التهمة بالزندقة والعقاب عليها على ما سنفصله إن شاء الله .

ونكتفي في القول في ثورات الزنادقة بعرض موجز لأخطر ثورتين ظهرتا في عهدي المهدي : إحداهما ثورة الزنادقة المبيضة في خراسان وقد ظلت نحو عامين[1] وثانيتهما ثورة الزنادقة المحمرة بعدها وقد تم إخمادها بسرعة ويسر ، فقد كانت هاتان الثورتان هما اللتين وجهتا نظر المهدي إلى الزندقة وجهة خاصة وصبغتا عهده بها صبغة خاصة مما لم يكن له قبله مثيل . وها نحن أولاء نلخص أخبارهما مما كتب كل من الطبري وابن الأثير في تاريخه : ظل المنصور يدبر ملكه قرابة اثنتين وعشرين سنة[2] (١٣٦ — ١٥٨ هـ) وقد توفي في يوم السبت سادس ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ببئر ميمون محرما وهو يقوم بشعائر الحج[3] وقد تولى الخلافة بعده ابنه المهدي ولم تمض بضعة أشهر من سنة ١٥٩ هـ أو من خلافة المهدي حتى فوجيء بثورة عوان في خراسان هي ثورة الزنادقة المبيضة فاضطرب لها ملكه وزازل زلزالا شديدا[4]. ذلك أنه خرج في خراسان في هذه السنة (١٥٩ هـ) رجل من الفرس يسمى هاشم بن حكيم وهو المعروف في التاريخ بالمقنع الخراساني لأنه كان يضع على وجهه قناعا من الذهب ليخفي به دمامة وجهه ولم تكن ثورته كثورة غيره انتقاضا على الدولة لاستبدال خلافة بخلافة أو الثأر لقبيلة من قبيلة أو نصر جيل على

(١) الطبري ج ٩ ص ١٦٩ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٩٥ ، والخضري ص ٥٦ — ٦٠ ، ودائرة المعارف الاسلامية : المادة : أبو مسلم وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٠ ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٢ — ١٧٥ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٢ والخضري ص ٧٥ .

(١) لم أجد من حملها غير ذلك وإن اختلف في وقتها فهو عند الطبري من سنة ١٦١ إلى ١٦٣ وعند ابن الأثير من ١٥٩ إلى ١٦١ هـ وعند حسن خليفة في كتابه : الدولة العباسية من ١٥٨ إلى ١٦٠ هـ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٩٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٦ ، والخضري ص ٨٥ ، وتاريخ بغداد ج ١ ص ٦٥

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٦ ، والخضري ص ٨٠ ، والأستاذ حسن خليفة : الدولة العباسية — قيامها وسقوطها (الطبعة الأولى) .

(٤) يبدأ الطبري بذكر هذه الثورة في أخبار سنة ١٦١ هـ وينتهي بذكرها في أخبار سنة ١٦٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ٣٣٨ ، ٣٤٣) ويبدأ ابن الأثير بذكرها في أخبار سنة ١٦٠ هـ (ابن الأثير ج ٦ ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩) وقد سكت الخضري عن توقيتها عند كلامه فيها (الخضري ص ٨٨) ويذهب الأستاذ حسن خليفة في كتابه (الدولة العباسية ص ٥٤) إلى أنها كانت بين سنتي ١٥٨ و ١٦٠ هـ ، وقد رجحت رأي ابن الأثير على رأي الطبري لأن المهدي بدأ بالعقاب على الزندقة في أوائل سنة ١٦٠ ورجحته على رأي الأستاذ حسن خليفة لأن المهدي ولي الخلافة في ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ، ولم يذكر الأستاذ مصدره الذي نقل عنه هذا التوقيت ، ولهذا كان التسليم برأي ابن الأثير أسلم وأوفق للوقائع بين المهدي والزنادقة حتى كما رواها الطبري والخضري وابن الأثير نفسه

جيل[1] بالقوة فحسب ، بل كانت إلى جانب محاولة التخلص من الحكم العربي لفارس ثورة ذات آراء خاصة في الدين والكون : كانت نزعة عنصرية فارسية بدليل أنها قامت في خراسان ، وألقائمين بها من الفرس ، وكانت ترمي لأخذ الثأر من الخليفة والعرب جميعا : فقد كان المقنع يقول بتناسخ الأرواح وأن روح الله ظهرت في آدم ثم انتقلت إلى نوح وهكذا إلى أبي مسلم[2] ثم المقنع نفسه ، فهو إذن يدعي الربوبية لنفسه[3] ، وهذا ما لم يزعمه ثائر قبله لنفسه ، ومن أجل ذلك كانت ثورته ذات طابع خاص يميزها من الثورات التي تقدمتها وإن اتفقت معها في كثير من الغايات . ومن أجل ذلك أيضا كان من الحزم والفطنة أن ينظر إليها الخليفة المهدي نظرة خاصة تتاز عن نظراته إلى الخارجين عليه من طلاب الملك والمغانم وغيرهم .

نهض المقنع يدعو من حوله إلى الإيمان بربوبيته والأخذ بتعاليمه في خراسان وما وراء النهر فاستغوى بشرا كثيرا من الصغد وبخارى وسمرقند وأتراك بحر قزوين ، وامتد نفوذه في تلك البقاع النائية ونبه أمره ، وكان أتباعه يسجدون له من أي النواحي كانوا ، وكانوا يقولون في الحرب : « ياهاشم أعنا » وتحصنوا في قلعة بسيام وسنجردة وهي من رساتيق كش فيما وراء النهر[4] ، وأعانه كفار الأتراك فأغاروا على المسلمين ، وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي عليه السلام ، ويدعي أنه يقتل قاتليه ، واجتمع مع من والوه بكش وغلبوا على بعض قصورها وعلى قلعة نواكث وحاربهم أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر من ولاة المهدي في إقليم خراسان وما وراء النهر مرة بعد مرة فلم ينالوا منهم شيئا ، وقتلوا حسان بن تميم ومحمد بن نصر وغيرهما من الولاة . وعندئذ لاح الخطر على الدولة للمهدي فعبأ جيوشه ووجه بها إلى المقنع يقودها أبرع قواده فعجزوا عن إخضاعه : ومن هؤلاء معاذ بن مسلم واليه على خراسان ومعه عقبة بن مسلم وجبرئيل بن يحيى وأخوه يزيد وليث بن نصر بن سيار مولى المهدي . ولقد اشتغل هؤلاء بقتال المقنع وزنادقته المبيضة الذين كانوا ببخارى فقاتلوهم أربعة أشهر في مدينة بومجكث وتغلبوا عليهم وقتلوا منهم سبعمائة ، ولكن منهزميهم لحقوا بالمقنع فكانوا له قوة ، ولقد تبعهم جبرئيل بن يحيى بعد أربعة أشهر في القتال بلا جدوى . وكان ممن سيرهم المهدي إلى المقنع قائده أبوعون فلم يبالغ في قتاله . واستمرت الحرب بين جيوش المهدي وجيوش المقنع نحو سنتين حتى عيل صبر المهدي ولقي المسلمون منه بلاء عظيما ، وكان المهدي أثناءها يبعث بقواده على جيوشه مجتمعين ، وفي نهاية الأمر أرسل معاذ بن مسلم وجماعة من القواد والعساكر وعلى مقدمته سعيد الحرشي ، وأتاه عقبة بن مسلم من زم فاجتمع به بالطواويس وأوقعوا بأصحاب المقنع ، وأتى معاذ بعد سعيد فحاربهم ، ولكن كل أولئك لم ينزل الهزيمة الساحقة بالمقنع وجيوشه . وجرت في نهاية الأمر جفوة بين القائدين سعيد الحرشي ومعاذ بن مسلم فكتب سعيد إلى المهدي يقع في معاذ ويضمن له أن يكفيه المقنع إن أفرده بالقيادة فأجابه المهدي إلى ما طلب ، فبدأ يطارد المقنع ويضيق عليه ويحاصره وإذ ذاك شعر المقنع بالخطر فبدأ يجمع الأقوات والأسلحة عدة للحصار ، ولكن سعيداً ضيق عليه الحصار حتى أيأسه من النصر والحياة والمقنع محصور في قلعة كش ، فلما أحس بالهلكة شرب سما وسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعا ، ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه ووجهوا به إلى المهدي وهو بحلب .

ولقد عرف المقنع الخراساني هاشم بن حكيم وأتباعه بالزنادقة المبيضة لأنهم اتخذوا اللباس الأبيض شعارا لهم[1] .

(١) الجيل هو الأمة فيقال الجيل العربي والجيل الفارسي بمعنى الأمة العربية والأمة الفارسية ، وليس معناه العنصر

(٢) يلاحظ في هذه السلسلة ظهور اسم أبي مسلم وهو فارسي ، ويلاحظ معه ما كان من مطامعه وقتل المنصور إياه ، فهذه الثورة كان المقصود منها التخلص من الحكم العربي ، والثأر لأبي مسلم

(٣) ذلك يدل على أن من أغراضها خلع الاسلام .

(٤) المراد به نهر جيحون أو أمودريا ، وكان هناك إقليم من أقاليم الدولة الاسلامية منذ ظهور العباسيين يسمى إقليم المشرق ، قسم منه شرق نهر جيحون ويسمى ما وراء النهر (بالنسبة لعاصمة الدولة : دمشق أو الهاشمية أو الكوفة أو بغداد أو هيطل) ، وأتاني غربي جيحون ويسمى خراسان

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ومحاضرات الخضري بك ص ٨٨ وحسن خليفه في كتابه : الدولة العباسية ـ قيامها وسقوطها ص ٥٤ — ٥٥ .

هذه هي الصدمة الأولى من صدمات الزنادقة التي أصابت الدولة العباسية في عهد المهدي فاضطربت لها دولته جميعا وتتابعت لها الزحوف إثر الزحوف نحو سنتين حتى أخمدتها بعد لأي شديد وإسراف كثير في الأرواح والأموال ، ولم يكن المهدي قبل ذلك إلا عالما أقوى العلم بخطر إقليم المشرق فمنه انبعثت الجيوش الخراسانية التي دكت المملكة الأموية دكا ، وأسلمت الخلافة للعباسيين ، وما كان المهدي ليجهل خطر الفرس وما أنزل بهم العرب من بلاء طوال مدة بقائهم في الأقاليم الفارسية ، ولا حقد الفرس على العرب وتربصهم بهم الدوائر ، وما كان من قتل أبي مسلم ومطامعه وثورة تلميذه وتابعه سنباذ ثم ثورة الراوندية ، وما كان ليجهل الدوافع القريبة والبعيدة التي أثارت هذه الفتن؛ ولم يكن ينقصه سوء الظن والدهاء وقد كان الأمران من أهم الأركان في سياسة الدولة العباسية منذ عهد السفاح بل قبله إلى عهده هو (المهدي)[1]

أما الثورة الثانية فقد جاءت إثر الأولى بعام واحد تقريبا[2] وإن لم تبلغ من القوة ما بلغت الأولى ولم تكلف المهدي من الأموال والأرواح والمتاعب ما كلفته تلك : قامت هذه الثورة في المشرق أيضا (وهكذا المشرق دائما) في ولاية جرجان شرقي بحر قزوين ، وكان القائمون بها يعرفون بالزنادقة المحمرة لأنهم اتخذوا اللباس الأحمر شعارهم ، ولا خلاف بين الطبري وابن الأثير في أن هذه الثورة كانت سنة ١٦٢ هـ[3] ، بل تكاد كلماتهما تتحد في الرواية . قال ابن الأثير في أخبار سنة ١٦٢ «وفيها خرجت المحمرة بجرجان عليهم رجل اسمه عبد القهار فغلب عليها وقتل بشرا كثيرا فغزاه عمر بن العلاء من طبرستان فقتله عمر وأصحابه[4]»

وقد انتشرت تعاليم طوائف الزنادقة بين الناس فيما وراء النهر وخراسان والولايات الفارسية الغربية والشمالية ، وتسربت أيضا إلى العراق ، وكانت تعاليمها مزيجا من فلسفة مانى واشتراكية مزدك كما سنفصله إن شاء الله ، فهب علماء المسلمين ممن اشتغلوا بعلم الكلام يردون على هذه التعاليم . ولقد كان لتعاليم الزنادقة بعدئذ وقبلئذ أثر عظيم في نظريات علم الكلام واتجاهاته بل اتجاه الفكر الإسلامي كله حينذاك وفي أقوال الشعراء الفرس ، حتى لا نستطيع أن نفهم بعض مذاهب المتكلمين وأقوال بعض الشعراء وبعض اتجاهات الفكر الإسلامي بل كلها في ذلك العصر إلا إذا درسنا حركة الزندقة . ولا حيلة لنا كما قدمنا في فهم معنى الزندقة بل معانيها المختلفة ما لم ندرس حركة الشعوبية التي ظهرت كما قدمنا منذ وطئت أقدام العرب أرض فارس في عهد عمر بن الخطاب ولم تظهر في غيرها من البلاد التي فتحها المسلمون كمصر واليمن والشام وبلاد المغرب وموعدنا بذلك المقال التالي إن شاء الله .

محمد خليفة التونسي

تصويب:

في مقالنا الأول (الزندقة في عهد المهدي العباسي) المنشور بعدد الرسالة ٦٣٧ وقع خطأ في اسم أبي سلمة حفص الخلال فكتب في صفحة ١٠١٣ أبو حفص سلمة الخلال ، وفي صفحة ١٠١٤ أبو سلمة وصوابه — كما قلنا — أبو سلمة حفص الخلال كما يفهم من الأبيات التي نقلناها هناك ، ومنها :

شرب الكأس بعد حفص سليما ن ودارت عليه كف المدير

(١) راجع مقالنا الأول في الرسالة — العدد ٦٣٧ وعنوانه (الزندقة في عهد المهدي العباسي) .

(٢) و (٣) الطبري جـ ٩ صـ ٢٤٢ ، وابن الأثير جـ ٦ صـ ٢١ . وقد ذكر كلا المؤرخين هذه الثورة في أخبار سنة ١٦٢ هـ ، ولكن يلاحظ أن الطبري — كما تقدم — يذكر أن ثورة الزنادقة البيضة بدأت سنة ١٦١ هـ وانتهت سنة ١٦٣ هـ فمعنى أن ثورة الزنادقة المحمرة قامت أثناء قيام ثورة الزنادقة البيضة ، ويلاحظ أن ابن الأثير يذكر — كما تقدم — أن ثورة الزنادقة البيضة بدأت سنة ١٥٩ هـ وانتهت سنة ١٦١ فمعناه أن ثورة الزنادقة المحمرة بدأت بعد ثورتهم بسنة واحدة تقريبا ، وذلك ما أخذنا به ، لأنه لا مفر لنا منه بعد أن رجحنا فيما سبق رأي ابن الأثير على رأي الطبري في توقيت الثورة فجعلنا مبدأها سنة ١٥٩ هـ ونهايتها سنة ١٦١ كما رأى ابن الأثير

(٤) ابن الأثير جـ ٦ صـ ٢١ .

إدارة البلديات — تنظيم

تقدم العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) حتى ظهر يوم ٢٥/١٠/١٩٤٥ عن توريد عدد ٢ عربة بكليش وعدد ٢ عربة قمامة لمجلس دسوق البلدي وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٥٠٠ مليم للنسخة الواحدة عدا ٦٠ مليما أجرة البريد ٤٣٠٠